بسم الله الرحمن الرحيم

ثورة الشعوب وسقوط النظام العربي الفاسد
كسر صنم الاستقرار والانطلاقة الجديدة

بقلم : عطية الله أبي عبد الرحمن
13ربيع الأول 1432هـ
16/2/2011م

تابعنا مع شعوبنا العربية وكل شعوب العالم، مجريات ثورتي تونس ومصر، في حماسةٍ وحرارةٍ ، وكان يخيّلُ إلي أنني أسمع صوت تكسر عظام نظام الفرعون العجوز المتهاوي حسني اللامبارك، وأسمع معها –كقرع الطبول- دقاتِ قلوب اليهود على مرمى حجر وهي تضطرب في خفقٍ رهيب من الرعبِ والذعر الذي ألقاه الله عليهم بهذا الحادث الجلل.!

كنا على مر الأيام نتابعُ الأخبار وندعو الله للمسلمين أن يبرم لهم أمرَ رشدٍ، وأن يخلص الله أهل تونس من الطاغية الجبان، وأن يخلّص مصرَ وشعبها المسلم من هذا الطاغوت ونظامه الخبيث الفاسد الظالم العاتي العتلّ الجواظ، وأن يبرم للمسلمين في مصر أمر رشدٍ، ويجعل هذه الثورة خيراً للإسلام والمسلمين، صحيحٌ أنها ليستْ الكمال الذي نتمناه، ولكنّ زوال بعض الشر أو كثيرٍ منه شيءٌ يسرُّ المرء، مع ما نرجو من كون هذه الخطوة مقدمةً لخيرٍ آتٍ وفاتحة لأبوابٍ بإذن الله.

ولذلك فإن شعوبنا العربية والإسلامية في تونس ومصر والجزائر وليبيا والأردن واليمن وغيرها محتاجة لمن يذكرها بالله في هذه الأيام، ويذكرها بأيام الله وسننه، وينبّههم بلطفٍ إلى مواقع العبر والحِكَم المستفادة من هذه الدروس الكونية، وهذا دورٌ مهمّ للدعاة إلى الله وطلبة العلم والحركات الإسلامية.

لم تكن هذه الثورات وخاصة ثورة مصر ثورة على النظام المصريّ والنظام العربي الفاسد الخبيث، فحسبْ، بل إن أبعادها أشمل وأعمق؛ فهي نقطة فاصلة ونقطة تحول بارزة في تاريخ المنطقة وعلاقاتها الاجتماعية، ولم يكن حسني اللامبارك ونظامه هو الساقط في ثورة مصر فحسبْ، بل سقطت معه أيضا فكرة "الاستقرار" الذي جعلوه صنماً عبده الطواغيت الأنذال وعبّدوا الناس له، استقرار المنطقة، الذي ليس معناه إلا توافر كل عوامل الطمأنينة لهم والأمن من أي منغّصٍ ينغص عليه م أحوالهم الباذخة الناعمة الفارهة أو يهدد

مُلكهم وسيطرتهم المطلقة على البلاد ومقـدراتها وانفرادَهـم وعـائلاتهم بـالحظ الأوفر والنصيب الفائض من ثرواتهـا وخيراتهـا، بمـا يسـتلزمه ذلـك مـن حراسـة حدود دويلة إسرائيل البائرة وضمان أمنها وحمايتها من أي توجه جهادي.!

سقط النظام المصري، وقبلـه التونسـي، ولعلـه يلحقـه اليمنـي والأردنـي وربمـا الليبي والجزائري والمغربي، بإذن الله تعالى.

وساعة إرادتي إرسال هذا المقال للنشر، جاءت الأخبار ببدء تحرّك أهلنا في ليبيا وثـورتهم علـى الطـاغوت المخبـول المشـؤوم وعـائلته الـذين طغـوا فـي البلاد وأكثروا فيها الفساد وجعلوها ملكاً لهم ولكلابهم، فنسـأل اللـه أن يخلّـص النـاس منهم، وأن يبرم للمسلمين في ليبيا أمرَ رشدٍ يعزّ فيه أهلُ طاعته سبحانه ويـذلّ فيه أهلُ معصيته.

وهكذا ضرب الله للناس الأمثال واسـتطاع جيـلُ الشـباب أن يثبـت فـاعليته فـي عالمنا الجديد رغـم كـل المسـاعي الـتي بـذلها النظـام العربـي الفاسـد لإفسـاد الشباب على جميع المستويات وتنويمهم، ولكنه كان نظامـاً غبيـاً غيـر واعٍ أشـبه بالشهوانيّ لا غير، وكان لابد للثورة أن تأتي مهما طال الزمن فهذه سـنن كونيـة نعرفها من التاريخ والمعارف البشـرية والتجـارب ومـن حسـابات علـوم النفـس والاجتماع البسيطة، فإن تراكم الفساد بالطريقة الحاصلة فـي أمتنـا ومجتمعاتنـا العربية والإسلامية لا يمكن أن يستمر طويلاً جداً حتى يؤدي إلـى الانفجـار، يوقِـد فتيله ما يقدره الله ومَـن يهيئُـهُ اللـه، ويجمـع بـارودَهُ جهـودٌ متظـافرةٌ لا تحصـى تتظافر لمقابلة ذلك الفساد المتراكم، منها الصالح ومنها دون ذلـك، واللـه أعلـمُ بما يعمل الخلق وما ينوون ويريدون، وفيهـم المفلـح الفـائز فـي الآخـرة وفيهـم الذي إذا أفضى إلى الآخرة لم يجد شيئاً إلا الخسـران والعيـاذ بـالله، ولكـن تلـك الجهود تجتمع كلها على مقاومة النظام الطاغي. وتـذكرتُ هنـا مـا قـال الشـاعر أحمد مطر : ((أعلمُ أن القافيـةْ . لا تسـتطيعُ وحـدَها إسـقاطَ عـرشِ الطاغيـةْ . لكنني أدبغُ جلدَهُ بها دَبْغَ جلودِ الماشيةْ . حتى إذا ما حانتِ الساعةُ وانقضّتْ عليه القاضيةْ . واستلمتْهُ من يدي أيدي الجموعِ الحافيةْ . يكونُ جلداً جاهزاً تصنَعُ منـه الأحذيةْ.))اهـ

ومع ذلك لم أكن ككثيرين من الناس نتوقعها بهذه السرعة ، على نحو ما حصل في تونس الخضراء الأبية، ولا أظن أن الأعداء توقعوها أيضا، وهذا ما تـدل عليـه تصرفات فرنسا الركيكة الغبية، وحتى الأمريكان، مع أنهم كانوا أحسن حـالاً مـن الفرنسيين، ولاسيما في مصر؛ واستفادوا من التجربة وأدركوا أن التغيير قادمٌ لا محالة.!

لقد ظننا مع كثيرين أن الشعوب ماتت أو خُدّرت إلى أمدٍ غلـب علـى الظـن أنـه طويل، بسبب ما فعله الطواغيت المجرمون بهـا، لكـن ثـورة تـونس ومـا بعـدها أثبتتْ أن الشعوبَ يمكن أن تثور في الوقت الذي يظن المراقبون أنهـا مـاتت أو غابت عن الوعي!

لكنني أسجّل مع ذلك موقفين : الموقف الأول : أننا قرأنا قبل مدة من اندلاع الثورة في تونس، أي في أيام الطاغية بن علي، مقالاً في الانترنت أظنه للأخ الشيخ أبي مسلم الجزائري توقع فيه انهيارَ النظام التونسي قريباً وانفجار ثورة ونحو ذلك، وكان لافتاً ، وحمدتُ الله حين استذكرتُهُ بأن في شبابنا من يُحسن التأمل والاستشفاف والاعتبار والتوقع، وأن فينا طاقات واعية، نسأل الله أن يبارك فيها.

والموقف الثاني : الرسالة التي انتشرت على الانترنت من أختٍ تونسية وجهتها إلى تنظيم القاعدة وقيادته الشيخ أسامة بن لادن وغيره، تستغيثُ فيها وتحكي مأساة الإسلام والمسلمين والإخوة والأخوات الملتزمين بالدين في تونس، وكانت الرسالة –بغضّ النظر عن التوثق الكامل من صحتها وواقعيتها- مؤثرة ومحزنة ومثيرة للمزيد من الغضب والحنق والغيظ على أولئك الطواغيت الملاعين أعداء الله وأعداء الإسلام وأعداء الفضيلة والطّهر، الذين عاثوا هم وأحزابُهم وأنظمتهم في الأرض فساداً قل نظيره، ولم يكن باليد كبير حيلة، وكان الإنسان في حالةٍ يكاد ينفجرُ، لولا أن يربط الله على القلوب، وما كنا نملك إلا شيئين كما قلتُ لبعض إخواني ساعتها : أن نجأرَ إلى الله بالدعاء ونجتهد فيه مع إخواننا وأخواتنا المستضعفين، وأن نستمر في جهادنا. إن الثبات والاستمرار في الجهاد هو من أهم ما أعطانا الله عز وجل من الفرصة لأن نقدم من خلاله خدمةً لديننا وأمتنا وإخواننا وأخواتنا المقهورين المضطهدين، وبهذه المناسبة فإنني أحبُّ أن أوضّح لإخواني وأخواتي في كل مكانٍ شيئاً –مع اعتزازنا بثقة المسلمين ومحبتهم- : إن القاعدة ليستْ لديها عصا سحرية كما يُقال، وليست القصة أيها الإخوة والأخوات الفضلاء الأحباب هي قصة "المعتصم وعمورية" ولا قصة تحريك جندٍ وتجيش جيوش لا يُعرف أولها من آخرها، فالقاعدة جزء بسيطٌ من جهودِ الأمة المجاهدة، فلا تظنوا بها فوق قدرها، ولنكن عارفين بأقدارنا جميعاً، ولنجتهد في التعاون على البر والتقوى والجهاد في سبيل الله، كلٌّ من موقعه وبما يستطيعُهُ وبما يكون المناسبَ في حقه، والله يفتح وينزّل الفرَجَ والنصر بصدق الصادقين وإخلاص المخلصين ودعاء الضعفاء المغلوبين. ولكأن رسالة الأخت من تونس كانت حقاً الإشارةَ الأخيرةَ لنهاية نظام الطاغوت بن علي، وتفريج الكرب بإذن الله، وتلك عبرةٌ للمتأملين، وأتمنى من هذه الأخت الآن أن تكتب رسالة أخرى عن الوضع الجديد الذي ليس هو بالتحديد ما نحلم به جميعاً ونريده، ولكنه بالتأكيد تفريج لكثيرٍ من الكروب، والمأمول إن شاء الله أن يكون في غضونه كثيرٌ من الخير والرحمة.

وإن على المصلحين من أبناء الأمة اليوم، والمجاهدين والدعاة إلى الله أن يغتنموا هذه الفرصة التاريخية، وينطلقوا في عمل دعوي وتربوي وإصلاحي وإحيائي دؤوب في ظل ما تتيحه أوضاع ما بعد هذه الثورة من حريات وفُرَص، وبعد زوال كثيرٍ من الآصار وتحطم الكثير من القيود. وفي الجملة ندعو الشباب إلى حسن الفهم للأمور، والبُعد عن "ضيق الأفق" والتشنج والاستعجالِ، ولا ينبغي أن يدخلوا في خلافاتٍ مع الطوائف المختلفة معهم في الحركة الإسلامية، كإخوة النهضة في تونس مثلاً أو غيرهم، بل ينطلقوا في العمل البنّاء الإعداديّ، وهكذا الإخوة في مصر وسيناء ورفح وغيرها، ولتكن الدعوة بالرفق والتزام

الآداب الكريمة وسعة الصدر للناس واختلاف أفهامهم هي السائدة، وليستحضروا أن أمتنا تعيش مراحل صعبة ومعقدة وأنها للتوّ بدأت تحاول النهوض والخروج من حال الانحطاط التي ارتكست فيها عقوداً بل قروناً! فليكن الشباب على مستوى الوعي المطلوب، وكل ذلك لا يتعارض مع الحماسة في البذل للدين والغيرة والحمية له والصدع بالحق البيّن، ووضوح المنهج، إنما ضُمّوا إليه ما أشرنا إليه من الفضائل : الرفق وكمال الأدب وتغليب الشفقة والرحمة والإحسان في التعامل مع كل المسلمين، بل مع كل الناس. اجعلوا قاعدتكم هي : بإمكاني أن أعمل الخيرَ وأقول الحق، ولكن بكل أدبٍ وكياسةٍ وتجنّبٍ للمشاكل المفسِدةِ المُعيقة. واعرفوا -بارك الله فيكم- أن الحق درجاتٌ، منه ما لا يُتركُ قوله وفعله بحالٍ، ومنه ما يُتركُ لمعارضٍ أو مانعٍ (عذرٍ)، فتفقهوا في هذا، وافتحوا قلوبكم لفهم العلوم النافعة والرقي بمستوى الوعي والفقه.

لقد كشفت هذه الثورة العربية في تونس ومصر وما نرتقبه بعدهما من بلدانٍ، كشفت عن مجموعة هائلة من الحقائق وأظهرتها للعيان، وذلك من الخيرِ الكثير، ومن رحمة الله بالمسلمين، وقد بدأ الناس يكتبون في ذلك ولابد أنه سيكتب الكثير والكثير فإن هذا حدثٌ تاريخيّ كبير، وإنما أحببتُ أن أذكّر ببعض ذلك : فمنها : هشاشة هذه الأنظمة البوليسية الاستبدادية الشمولية الطاغية رغم انتفاشها في أعين الناظرين، ولكنها خواء، يملؤها الجُبنُ والخَوَرُ، متعفّنة من الداخل، متهاوية، ما أن تتحرك الشعوب وتثور عليها حتى تنهار ويهرب رؤوسها إلى الخارج لا يؤويهم في البلدِ جُحْرُ ضبٍ! وأدرك كثيرٌ من الناس أن الحكام الكفرة الطغاة لا قيمة لهم في ذواتهم من فضلِ صلاحٍ أو نفعٍ، وإنما صنعوا لأنفسهم قيمة بالسلطان وقوة الشُّرَط والأعوان والطبقات المنتفعة بهم المرتبط مصيرها بمصيرهم. ومنها : ما بانَ للناسِ من أن الغرب الكافر لا تهمّه مصالحُ شعوبنا الإسلامية في شيءٍ أبداً، ولا يبكي علينا إلا دموع التماسيح حين يبكي، وإنما يركض ويلهث وراء مصلحته الشخصية والتي تقتضي "استقرار" المنطقة ودوام هذه الأنظمة الحلوب، رغم عَسْفها وظلمها وقهرها لشعوبها وكبتها لحريتها، ورغم فسادها الكبير الذي يعرفه الغربُ جيداً، ورغم انعدام أبسط حقوق الإنسان في ظلها. رغم كل ما يعرفه الغرب جيداً من مآسي شعوبنا وما تعانيه من الحرمان والظلم، فإنما يهم الغرب فقط هو استمرار الأحوال على ما هي عليه لضمان استمرار تحقق مصالحه الاقتصادية وتدفّق خيراتِ بلادنا وشعوبنا على أسواقه ومصانعه. بان هذا للناس في أوضح صوره في موقف فرنسا من ثورة تونس، وموقف أمريكا وغيرها، فمن لم يبصِر هذه الحقائق فلن يبصر شيئاً!. ومنها ومن أهمها : اتضاح الارتباط الوثيق بين هذا النظام العربي المرتد وبين اليهود (إسرائيل) وكيف أن مصر حسني اللامبارك هي بمنزلة الحارس الأمين اليقظ لليهود، فقد رأى الناسُ مدى تشبّث اليهود بحسني ونظامه، ومدى خوفهم ورعبهم من سقوطه، وعرف كثيرٌ من الناس اليوم أنه لولا هذه الأنظمة الكافرة الخائنة (مصر والأردن وسوريا وباقي دويلات النظام العربي الخبيث) لما بقيتْ دويلة إسرائيل في الوجود إلا ريثما تتم المعركة السريعة مع أمتنا وتنتهي بانتصار أمتنا، والله أكبر، وإن ذلك لقريبٌ آتٍ

إن شاء الله. ومنها : ما يتعلق بالنظام السعودي المنـافق، فـإن خـائن الحرميـن الشريفين ملك آل سعود وقف بكل ما أوتي من قوة خائرة مع حسني اللامبارك واستماتَ –على وَشْكِ موتِهِ- في نصرته، حـتى خـالف الأمريكـان فـي مـوقفهم، ولعله لأول مرةٍ يشاكسهم في شيء. رأى الناسُ في جزيرة العرب وغيرها كيف وقف عبد الله آل سعود مع حسني وحـاول مجتهـداً أن يمنـع سـقوطه، متجـاهلاً مطالب الشعب المصري وإرادته وثورته العارمة، غيرَ ملتفـتٍ إلـى فظاعـة هـذا النظام وظلمه وفساده العظيم، ونحن نطرح على العقلاء فـي "السـعودية" هنـا أسئلة بسيطة فإن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار : لماذا يناصر عبد الله آل سعود حسني العلماني العميل لإسرائيل الوليّ للأمريكان حـبيب اليهـود؟ ألا يعلـم عبـد الله آل سعود بحال حسني وبحـال نظـامه المحـارب للـدين، البلطجـيّ المنتفـخ البطون من السحت؟ هل هذا الموقف من عبد اللـه آل سـعود نـابعٌ مـن الـدين و"العقيدة السمحة" ومن الحرص على خيرِ الأمة؟ هل نَصَرَ عبدُ الله حسني للـه ومن أجل الله والدين؟ هل يلتفـتُ عبـدُ اللـه آل سـعود إلـى الـدين وإلـى اليـوم الآخر؟!

أسئلة تنتظر إجابات في نفس كل حرٍّ يلـومُ نفسـه ويراجعهـا ويحـاول أن يتّعـظ قبل أن يطبع الله على القلوب {يا أيها الذين آمنـوا اسـتجيبوا للـه وللرسـول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليـه تحشـرون}، وقبل الطوفان، وقبل فواتِ الأوان.

وأما الإخوة المجاهدون في اليمن، فلا أنسى أن أذكرهم بأن نظام علي عبد الله صالح في أضعف حالاته، وأن الثورة عليه ماضية، وأنه منهـارٌ، فلا أظننـي بحاجـة إلى التذكير بأنها فرصة كبيرة : سياسية وأمنية وثقافية، وكم في الحـروب وفـي مراحل التحوّل من فرصةٍ لفعل الخيرِ لمن وفقه الله وسدده وآتاه تقواه.

وإلى موعـدٍ إن شـاء اللـه للتواصـلِ مـع أهلنـا وشـعوبنا المتحـررة، مـع شـعوبٍ مسلمةٍ متطلعةٍ بجدّية تامة إلى التمسك بالإسلام ديـن الا ه تعـالى وهُـداه الـذي فيه الخيرُ والأمنُ العزة والكرامة والطمأنينة والسعادة في الـدنيا والآخـرة {مَـنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَـاةً طَيِّبَـةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُـمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحـل/97]، {فَمَـنِ اتَّبَـعَ هُـدَايَ فَلَا يَضِـلُّ وَلَا يَشْـقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَـى}[طـه/ 123، 124].